

صراع القيم في حالة التغيير الاجتماعي السريع

اعداد : د. نوزالدين طوالبي
رئيس جامعة الجزائر

ان العديد من المنظرين في ميدان التغيير الاجتماعي و التابعين للمدرسة الفرنسية، أمثال : ج. بلاندي، دوفينيان و أ. سيكار، يهتمون اليوم بالتغيرات الاجتماعية التي تتميز بها أغلب المجتمعات ما بعد الاستعمار، و يعتبرونها أفضل موضوع ابستمولوجي لعلم الاجتماع.

يتصف هذا الاهتمام الظاهري الذي يتابع التغيرات الاجتماعية بالتأخر العلمي و المتمثل اجماليا في محاولة استعمال المنهج التاريخي لعلم الاجتماع قصد دراسة خاصة لهذه المجتمعات، و يتأرجح هذا الاستعمال بين الأوصاف الميكانيكية و التحاليل الجدلية للظواهر الملاحظة، يذكرنا هذا فيما وصفه بيار بورديو بعلم الاجتماع الحدسي و الاستاتيكي.

ان الخطر الناجم من هذا التناول يتمثل بطبيعة الحال في النظرة الجزئية للمجتمعات السائرة في طريق النمو، النظرة التي من خلالها تتم دراسة السلوك الاجتماعي الظاهري على حساب السلوكات الاجتماعية الكامنة التي تم تجاهلها، في حين ان هذه الأخيرة تكتسي طابعا حيويا و ديناميا، فضلا عن كونها جزءا لا يتجزء من الاجتماعي العام.

هذا القصور في الرؤيا يتضح بصفة جلية في الدراسات التي تناولت التغيرات الاجتماعية و المهمة للبعد الكامن و الغير الظاهري من السلوك

الاجتماعي. وهم قليلون من الكتاب الذين شغلوا بالمتغيرات النفسانية والداخلية للسلوكات الارتباكية (Anomie)، أمثال ر. باستيد و ج. دوفرو (م ف 1970). هذه المتغيرات التي تشكل في الحقيقة العناصر المحللة للعديد من هذه السلوكات، والتي ينفلت تحديدها العميق للكثير من علماء الاجتماع.

لا نبحث هنا في هذه السلوكات الارتباكية، والتي يمكن أن يسعها كتاب كامل ولا في نتائجها على وظائف المجتمع الكامل المتميز بصفة خاصة بهذا التعارض القائم بين التأخر العام وبين مستوى التنمية الذي يبدو أنها وصلت اليه المجتمعات المتغيرة. الا أننا نقول بصفة سريعة وكقاعدة عامة ان هذه الاضطرابات أو الخلل يتأرجح بين تشويه بسيط للثقافة (كحالة ادماج بين التأنيس (1) و السلوكات العصرية) وبين ردود فعل درامية محزنة كالانتحار، والميل نحو الأمراض العقلية و التطرف العصبي أو الديني). و تعد هذه الاضطرابات كأجوبة و دلائل من نوع خاص تفسر الوضعية العامة لمجتمعات ما بعد الاستعمار و المتميزة بصراع في قيمها.

بينما سنحاول هنا أن نفهم تكوين صراعات القيم في البلدان المغربية و المستقلة حديثا و التي نوليها أهمية خاصة .

تتميز النماذج الأجنبية عن القواعد الثقافية التقليدية في هـنـدـه البلدان، بحيث كثيرا ما نزيدها اعتبارا و قوة في معانيها لنضفي عليها طابعا مغربيا و مشوقا، في الوقت الذي يجري الحط من الثقافة الأصلية التي تتماهى بأكثر العناصر تخلفا و احتقارا و لا يهتم الا بخاصيتها الفلكلورية و المتعصبة. و من الطبيعي أن تقوم أي ثقافة مهددة بالاندثار بجملة من ردود الفعل الدفاعية، لحمايتها و بقائها، و هذا ما يعرف تقليديا بمضادة الاغتراب، أو الاغتراب المعاكس، مثلما ورد ذلك عند : ف. فانون و ج. دوفرو (م، ف 1970).

و رغم ذلك فلا بد من الادراك أن طرق الاغتراب و التي تتميز بقوة قاهرة

(1) التأنيس (Animisme) الحياة لغير الأحياء (معجم علم النفس لفاخر عاقل).

و متجددة تعمل على قطع و تكسير و تفتيت الثقافة التقليدية، و بدل أن تقضي على تشويها تدريجيا، و هكذا نصل الى مرحلة حاسمة من مراحل الاغتـراب و المتمثلة في ازالة الطابع العقائدي و المقدس (désacralisation) على العناصر و النماذج الثقافية المحلية.

و هكذا و بعد أن تفقد الثقافة أصالتها، تفقد بالتالي القيم المكونة لهذه الثقافة خصائصها و مميزاتها، لتتجمع بتداخل في رموز و نماذج كانت في ما مضى متضادة و متعارضة. هذه الوضعية من تطور و نمو الاغتراب، تشكل وضعا سوسولوجيا ذو طابع خاص دعيناها : بالمزج الثقافي أو التناقض الوجداني الثقافي (1).

ان تقبل و استبطان الأفراد لهذا الوضع المتميز -الأفراد المشكليين للمحيط البشري لهذه الظاهرة -، ينتخبون الامتزاج الثقافي في رتبة مرجع جماعي معاش تحت مؤشرات مزدوجة : التقليد و العصرية، المقدسة و الدنيوية. الا أنه خلافا لما هو شائع حول قدرة الاغتراب (Acculturation) الثقافي على ازدهار و ضمان التحضر و التقدم للأفراد، فان المزج الثقافي لا يعني الا تقريبا سلبيا بين مختلف القيم المتعارضة اجتماعيا. ان وضع القيم على هذا النحو من التعارض و الصراع لا يمر سالما حيث تعاش مثل هذه الثقافة بعنف و انفجار، و تكون موضع صراعات خطيرة، و السبب هو أن المزج الثقافي يتلائم و اشارة البعد الكامن لأعماق النفس البشرية، و يأتي التلازم المتضاد الوجداني و الثقافي كقيمة انسانية واسعة لتمثيل الجانب السيكلوجي في الوجه الخفي لعملية الاغتراب. و يمكن كذلك الانتقال من الطابع النفسي الى الطابع الثقافي. و الذي يؤدي بعدئذ الى تشكيل الأسس الوجدانية التي من خلالها يدخل الأفراد في علاقات لا شعورية مع ثقافتهم.

و قد بينا (2) هذا الاستعداد لدى أفراد بلدان المغرب المتميزة بالتغير السريع و دعيناها : بالتلازم الوجداني الثقافي المتضاد.

(1) ن. طوالي : الاغتراب، صراع القيم و استعمال الطقوس في الجزائر، مساهمة سيكلوجية في تفسير نظرية التغير الاجتماعي، رسالة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب و العلوم الانسانية بجامعة السربون، باريس، 1982.

(2) يمكن قراءة اللاتمييز الثقافي.

ان مظاهر التلازم الوجداني الثقافي المتضاد تكاد لا تفارق الحياة اليومية في هذه المجتمعات و المتمثلة عادة في الحصر و التردد أمام أي خيار أو عمل ذو مدلول ثقافي متناقض.

يمكن أن يتضح ذلك في حالات استعمال المؤشرات الثقافية الأجنبية، لما يمكن أن تحققه من نرجسية للأنا في الوقت نفسه تثير شعورا بالذنب من جراء معاكسة ذلك بأصل الكائن أو الفرد الاجتماعي.

ان هذا التناقض، أو قل صراع القيم يجسد في حقيقة الأمر: اشكالية الرغبة و حرمانها مما يؤدي الى بروز نوعين من ردود الفعل: تتمثل الأولى في الاتجاه العكسي أو الرجعي، الذي يعمل تدريجيا على دفع الفرد المتضارب نحو العزلة في وضعية هامشية نهائية. و أحسن مثال على هذا الاتجاه ما يمثله لجوء فئات الشباب في بلدان شمال افريقيا في المعتقدات الدينية المتطرفة لغرض دفاعي سيكولوجي، و هذا من جراء شعور مؤلم و قلق من فقدان مؤشرات ثقافية شائنة و مؤمنة تكون موضع التشخيص و التماهي لهؤلاء الأفراد. ألا تمكن في الحقيقة هذه المكنزمات على حل و تجاوز التعارض الأليم بصفة جذرية بين الثقافة التقليدية و الثقافة العصرية؟

ان أي لجوء الى اعماق الشخصية الثقافية، يلقي عادة التشجيع في أول الأمر في هذا الادعاء من قبل الديمقراطيات الشابة لهذه الدول من أجل اعادة تأهيل الثقافة و اللغة الوطنية و البحث عن نموذج خاص في التنمية. كثيرة هي هذه المشاريع الشرعية و المشروعة ان لم نقل التعازيم التي لا يفارقها ضلل الاستعمار الذي يكبح الذاكرة الجماعية. مما يؤدي الى تحريض و هيجان فئات من الشباب في اتجاهات عقائدية مقدسة، و مقدسة بشكل متفجر لدى بعض الشيعة ان شعور هؤلاء بعظمة المهمة التاريخية الملقة على أعناقهم، يمكنهم من أبعاد أي ذنب أو عقاب خارجي كان أو لا شعوري.

و هكذا و من خلال نظام داخلي ومعايشة صراع القيم المتعارضة) يمكن أن تشكل اضطرابات اجتماعية (العزلة و الهامشية في الثقافة) و التي تتخذ لنفسها سلوكات ظاهرية و شرعية لتفسير أعمال متطرفة خاصة لكل المنحرفين.

بيد أن ديمقراطية شابة أدركت في آوانها خطر مثل هذا التشويه

للمعايير الدينية (الجزائر ، تونس) و عواقب تطور هذا التخلف .

ان التوتر و الحصر الذي يميز المعاشية بين الثقافات ناتج من استعمال أو مثلما ورد عند كلود ليفيس ستروس (1) من خنبة للقيم التقليدية ، عند اعادة وظائفها على الأقل، كحالة التباهي باحياء الطقوس في الجزائر، التي تمكن فضلا عن احياء المعتقد الديني، تأسيس الانتقال من المقدسات التقليدية الى التاريخية العصرية لتأكد بالتالي الهوية الثقافية في الوقت الذي تدخل جملة من المتغيرات في صيغة تنافس ذو طابع عصري يعطي لهذه الهوية طابع المغترب (2) .

الا أن التلازم المتضاد الوجداني الثقافي تتعدى فعاليته هذه الاجراءات بحيث يشكل فضلا عن ذلك عامل اتزان لهذا الازدواج الثقافي بتكوينه و تأليفه لمكونات نفسية تعمل على عزل و تحطيم العناصر المشوهة و المثيرة للاضطراب .

و يمكن أن نشير الى ثلاثة مكنزمات الأكثر تمييزا :

1 - تصرفات انتقائية :

و التي تعمل على البحث في النظام التقليدي لاستعمال القيم و المعايير كرموز و مؤشرات التباهي و الارتباط و التعلق بهذا النظام التقليدي. ان السيرة الدينية في البلدان المغربية لها هذا الطابع الانتقائي الى حد عدم التمييز بين البعد النظري لهذه القيم و بين البعد العلمي.

2 - تصرفات متداولية :

و تتمثل في القدرة على الفصل في الزمان بين تحقيق عمليين أو حاجتين متعارضتين، تمكن هذه المكنزمات في القدرة على التداول بين مختلف المعايير المتضادة من امكانيات التسامح و ازالة أي ذنب من جراء اختيار لمؤشرات

(1) كلود ليفيس ستروس : الفكرة المتوحشة ، بلون ، باريس 1962 .

(2) نورالدين طوالي : المرجع السابق .

عصرية على حساب ما يقابلها من قيم تقليدية .⁴ وهذا بعد أن يدرك الفرد امكانية تعويض ذلك بهذه الأخيرة أي التقليدية، و يمكن أن تؤدي هذه المكنزمات في حالة سيطرتها على الحياة النفسية الاجتماعية الى تفصيل (Compartmentage) في الحياة الوجدانية و الاجتماعية للموضوع الاجتماعي.

3 - السلوكات الاختيارية :

تمكن هذه الأخيرة من تنظيم ازدواجية بنيائية تستبطن بصفة فعالة للقيم المتضادة و المتعاكسة . و يمثل هذا الازدواج الصورة الحقيقية للتلازم الوجداني الثقافي المتضاد، حيث يعمل جانبه الفعلي في النظامين من القيم المتنافسة (النظام العصري و التقليدي) لتتجمع حوله أغلب السلوكات الاجتماعية المتضاربة بين الثقافتين و بالتالي تعد السلوكات الاختيارية أحسن رد فعل للتلازم الوجداني الثقافي المتضاد الذي يميز المحيط الثقافي الاجتماعي.

ترتبط أهمية هذه المكنزمات المثيرة للتوازن للشحنات بين الثقافات بالاستعدادات و الامكانيات الفردية في تصورهما لتجاوز و ازالة صراعاتهما الداخلية المعاشة . ليس الأمر كذلك لدى العزلة الدينية مثل التي تشكل خلالا و اشكالية في آن واحد بدل أن تمثل حلا مناسباً، نفس الأمر و نفس الاضطرابات عند اللجوء الى الاجرام و التشرد أو الى الأمراض العقلية عندما تتوفر الظروف المساعدة لذلك من العوامل المثيرة لها، بينما يجري عليه الأمر فهذه الصراعات القيمية و المعايير و التي يمكن أن يتولد عنها من جراء تعارض مردوج - تعارض داخلي في القيم المتناحرة التي تعمل مهما طال الأمر على تفجير تصورات عدد من الأفراد لدى مواجهتهم للصدمة الثقافية، حالة الكثير من الأفراد الذين أنتقلوا و تركوا محيطا ريفيا ثابتا و مستقرا و أمنا الى محيط متمدين مشحون بعوامل الاغتراب يشيرهم الرعب و القلق لفقدانهم أدنى قواعد و مؤشرات التماهي و التشخيص و تحديد هويتهم . و هكذا لن يبق لهم الا البحث في مجال الاضطرابات العقلية عن مأوى لهم، رغم أن ذلك يشكل مأساة و معانات الا أنه يلقون فيه حلا لمشكلتهم .

و التعارض الخارجي يحدث عندما تتضارب و تتنافى تصورات الأدوار و السلوكات الفردية مع ما ينتظر منها و ما تتمثل الجماعة أن تكون عليها هذه السلوكات و التصرفات الفردية ليبرز من جراء ذلك ما يدعى كلاسيكيا بالصراع الذي يمكن أن تشهده فئتان من الأعمار، و الذي يتخذ وضعا بين ثقافتين أي بين

حاجات عصرية للأطفال مقابل مثلا الحاجات و النواهي التقليدية للوالدين .
ان مثل هذا التنافر في القيم و نظم المعايير يمكن أن ينتهي الى حــــــد
الروابط الأسرية ، و هكذا و من أجل تحاشي الصراعات الفردية بين الأفراد ،
كثيرا ما يلجأ الشباب الى أوضاع هامشية (1) .

انطلاقا من هذه الأفكار الموجزة و السريعة ، يتبين أنه ليس للسلوك
الثقافي عامة أي معنى و مدلول اذا لم يؤخذ عند تنظيره و ناءه ببعده المعاش
و يتمثل هذا البعد في ادماج معقد لجملة من الأنظمة الداخلية (سيكولوجية)
و خارجية (تاريخية و اجتماعية) التي تشكل و تعيد تشكيل الحركية الأساسية
لوجود الانسان . أليست هذه الحركية في الأخير رغم ما تظهر عليه هي أصل في
خلق حرية الانسان، حريته في صنع ثقافته ؟

(1) نورالدين طواليبي : الأسس النفسية الاجتماعية للاجرام عند الطفولة في
الجزائر الكبرى، الجزائر 1980 .

المراجع

- 1 (ج. بلانديي : سوسيولوجية التغيرات ، أنثروبولوجيا ، باريس 1970.
- 2 (ر. باستيد : الحلم ، الروح ، الجنون. فلانزيون ، باريس 1972.
- 3 (ب. بورديو : تصميم لنظرية التطبيق متبوعة بثلاث دراسات أنتولوجيية
حول قبائل الدروز، جونا ف ، باريس 1972.
- 4 (ج. دوفينيون : الأنوميا و التغيير في علم الاجتماع التغيير، أنثرو ، باريس
1970.
- 5 (ج. دوفرو : محاولة في الطب النفسي الانتولوجي العام ، (م. ف) قاليمار،
باريس 1970.
- 6 (ك. ليفس ستروس : الفكرة المتوحشة ، بلون ، باريس 1962.
- 7 (أ. سيكار : الآثار و مقاومة و عناد التقاليد في المجتمعات السائرة في
طريق النمو، في علم الاجتماع التغيير، أنثرو، باريس 1970.
- 8 (ن. طوالبي : الاغتراب، صراع القيم و استعمال الطقوس في الجزائر،
مساهمة سيكولوجية في نظرية التغيير الاجتماعي ، أطروحة
دكتوراه الدولة في الآداب و العلوم الانسانية ، جامعة
السربون ، باريس 1982.
- 9 (ن. طوالبي : الأسس النفسية الاجتماعية لاجرام الطفولة في الجزائر
الكبرى ، الجزائر 1980.